



هذا ما كان في الواقع ، نظرة على تاريخنا المخفي

بقلم: رانف محمد الويشي

يونيه 20 2014

نزل إلى الأسواق منذ فترة قصيرة كتاب يلقي الضوء على كثير من علامات الاستفهام الكبيرة التي جرت في الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من حرب باردة ، ويمتد ضوء الكتاب – وإن كان بشعاع خافت - إلى ما جرى في منطقة الشرق الأوسط من صراع عربي صهيوني ..  
تأتى أهمية الكتاب من أن كاتبه كان في قلب الحدث في كل مكان يتحدث فيه ، إنه الفريق فاسيلي ريشيتنيكوف ، القائد الأسبق للقوات الجوية السوفيتية البعيدة المدى ..

وضع الفريق ريشيتنيكوف في كتابه " هذا ما كان في الواقع " جل الأسرار التي لم يكن مسموحا بالبوح بها حتى عهد قريب ، سواء في زمن الإتحاد السوفيتي أو حتى بعد تفككه ..

كان فاسيلي ريشيتنيكوف في العشرينات من عمره في الحرب العالمية الثانية ، وبالرغم من كونه برتبة نقيب وفي عمر الحادية والعشرين ، إلا أنه كان قائدا لسرب من القاذفات الإستراتيجية بعيدة المدى ، وفي عام 1961 شارك كقائد قاذفة من طراز Tu-16 في تجريب قنبلة نووية بوزن 2.5 ميجا طن ( 2.5 مليون طن ) ..  
ترك فاسيلي ريشيتنيكوف الخدمة العسكرية في عام 1985 كقائد عام لقوات القاذفات بعيد المدى في الإتحاد السوفيتي ، وهي – بجانب الصواريخ العابرة للقارات – تعد الخيار الأخير للحسم في حال انفجار حرب عالمية أو إقليمية..

الكتاب ينفي بشدة ما رسخ في عقول العسكريين حول العالم من أن الهجوم الألماني على الإتحاد السوفيتي في فجر يوم 22 يونيو 1941 كان مباغتاً ..  
الفريق ريشيتنيكوف يؤكد في كتابه على أن العكس تماما هو ما كان معروفا عند العسكريين السوفييت ، فقد كان ستالين يعد العدة لشن هجوم مباغت على القوات الألمانية في بولندا ، كضربة استباقية لهجوم ألماني لا مفر منه على الإتحاد السوفيتي ..

**يقدم الفريق ريشيتنيكوف دليلا دامغا على دعم حجتة ، ففي 5 مايو 1941 ألقى ستالين أمام خريجي الكليات العسكرية في الجيش الأحمر السوفيتي وقال فيها ما يلي :**  
" يمكن أن تُمنى ألمانيا بالهزيمة إذا فرضت عليها حرب على جبهتين ، قدرات ألمانيا العسكرية والاقتصادية قد نفذت ، وستحدد الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي مسار الصراع لاحقا ، يجب على الجيش الأحمر من الآن الانتقال من موقع الدفاع إلى سياسة العمليات الهجومية " ..

يشير الكتاب إلى أن قيادة أركان الجيش الأحمر كانت قد نَقَذت توصيات ستالين التي كانت تنصب على كلمته المذكورة ، ففي 15 مايو من عام 1941 تم وضع الخطط الهجومية موضع الاستعداد على الأرض ، وبموجب ذلك تم حشد خيرة قوات الجيش الأحمر على الجبهة الغربية مع إهمال الخطط الدفاعية إهمالا تاما..

كانت بولندا قد تم تقسيمها بين ألمانيا والإتحاد السوفيتي على الورق بموجب اتفاقية " مولوتوف – ريبنتروب " في 23 أغسطس 1939 ، كان المظهر الخارجي للاتفاقية لا يعدو عن كونه اتفاقية لعدم الاعتداء المشترك بين البلدين ، لكن واقع الاتفاقية كان عبارة عن تقسيم أوربا بين الدولتين المذكورتين ..  
جرت الاتفاقية بسرعة قصوى جعلت وزير خارجية ألمانيا فون ريبنتروب يوقع عليها في الكرملين في نفس يوم وصوله مع وزير

الخارجية السوفيتي ميخائل مولوتوف وبحضور ستالين ، وبعدها بأيام قليلة – 1 سبتمبر – جرت طاحونة الحرب العالمية الثانية التي حصدت أرواح أكثر من سبعين مليوناً من البشر ..

سبقت توقيع المعاهدة مباحثات جرت في مارس عام 1939 بين بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي ، أفضلت بريطانيا وفرنسا تلك المباحثات لأنها حاولتا في الوقت نفسه إجراء حوار سري مع ألمانيا لدفعها إلى الحرب ضد الاتحاد السوفيتي وفشلتا..

فوجئت كل من بريطانيا وفرنسا بالاتفاقية المذكورة بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي ، فالوقائع التي كانت تجري على الأرض كانت ترجح التنافر بينهما وليس الاتفاق ، فقد وقف السوفيت بشدة إلى جانب قوات الجمهورية الإسبانية ضد قوات الملكية بقيادة الجنرال فرانكو ، كما أن التعاون الاقتصادي بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي كان قد تقلص إلى أدنى حد ..

ضمت تلك الاتفاقية في صفحاتها بنوداً سرية ، وقد أفصح الروس – بعد سقوط الاتحاد السوفيتي – في عام 1992 عن تلك البنود ، وعلى أية حال فالوقائع التي جرت على الأرض حينها كانت كفيلاً بشرح كل شيء .. فقد ضم الاتحاد السوفيتي الأقاليم البولندية المحاذية لأوكرانيا وبييلوروسيا ، علماً أن هذه الأقاليم تعد أراض روسية أصلية سبق أن ضمتها بولندا إليها في أعقاب الحرب السوفيتية البولندية أعوام 1919 / 1921 والتي يشكل الأوكرانيون وبييلوروس غالبية سكانها ، كما ضم الاتحاد السوفيتي بعد فترة دول البلطيق الثلاث ، وهي استونيا ولاتفيا وجزء كبير من لتوانيا المعاصرة التي كانت قبل عام 1917 ضمن أراضي الإمبراطورية الروسية ، وبموجب تلك البروتوكولات تم في يونيو عام 1940 إدخال القوات السوفيتية إلى منطقة بيسارابيا التي تدخل ضمن جمهورية مولدايا الحالية ..

على أية حال دامت تلك الاتفاقية بين الطرفين الألماني والسوفيتي لمدة عشرين شهراً فقط ، فقد غزت خيرة قوات هتلر من الجيش السادس الإتحاد السوفيتي في فجر يوم 22 يونيو 1941 ..

**يذكر الفريق فاسيلي ريشيتنيكوف في كتابه أنه ورغم أن رحى الحرب كانت تدور في أوروبا منذ سبتمبر 1939 إلا أن قوات الجيش الأحمر كانت تتصف بحالة عميقة من اللامبالاة ، لم يكن هناك أي استعداد لذلك الهجوم الذي شنه الألمان على الغرب السوفيتي ، وهو ما أدى إلى حدوث خسائر كارثية في القوات السوفيتية..**

كان قائد الجبهة الجنوبية الغربية ميخائيل جربانوس قد شعر قبل أسبوع من الهجوم الألماني على الإتحاد السوفيتي أن الحرب على الأوباب ، فأمر قواته باتخاذ تدابير دفاعية لحمايتها ببناء تحصينات ، وما أن علمت قيادة الأركان بتلك التدابير التي اتخذها حتى قامت بتوبيخه وأمرته بإلغاء تلك الإجراءات الدفاعية والعودة إلى الوضع الهجومي ، كانت حجتهم الواهية هو أن الجيش السوفيتي يجب أن يركز فقط على الخطط الهجومية وليست الدفاعية ، وهو ما يعنى في لغة الحرب أن تبقى القوات مكشوفة استعداداً للتحرك في أي لحظة..

**كان الإعلام السوفيتي يقود حالة الاسترخاء التي سرت في شرايين الدولة ، فوكالة تاس الرسمية للدولة كانت قبل أسبوع من الحرب قد أعلنت عن دعم التعاون الغذائي الإستراتيجي بين الإتحاد السوفيتي وألمانيا ، بل إن الأفدح من ذلك هو أن القيادة السوفيتية كانت قد أعطت قبل الغزو الألماني بساعات إحداثيات الدفاعية الخاصة بها في بلاروسيا إلى القيادة الألمانية عندما طلبت منها ذلك بحجة المساعدة في ضبط الاتصالات الألمانية أثناء إجراء مناورات للجيش الألماني بالمنطقة المجاورة ، وقد استخدم الألمان تلك الإحداثيات في قصف مركز الاتصالات والتحكم في بلاروسيا في الموجة الأولى للهجوم التي جرت في فجر 22 يونيو 1941 ، كما خرجت الصحيفة الرسمية الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوفيتي في هذا اليوم – برافدا – وهي تخلوا من أي معلومات عن الهجوم الألماني الذي غير مسار الحرب والتاريخ الإنساني ..**

كان قائد المخابرات العسكرية السوفيتية الجنرال فيليب جوليكوف يحجب الأخبار الهامة الخاصة باستعدادات الألمان الهجومية عن رئيس الأركان السوفيتية المارشال جورجي جوكوف ، كان جوكوف يشتكى إلى ستالين من ندرة المعلومات الهامة القادمة من جليكوف ، كان ستالين يرد عليه بأن عليه أن يهتم فقط بما يصدر من مكتب رئيس الدولة من معلومات ، لقد كان جوليكوف يقدم إلى ستالين ما يخدم نظرية رئيس الدولة فقط ، وهو أن الألمان لن يستطيعوا غزو الإتحاد السوفيتي ..

لم يكن ستالين يصدق إلا ما يقوله هو ، لقد بلغت العظمة لديه هذه الدرجة ، وقد أيقنت القيادات الإستخبارية هذه الحقيقة ، فقدمت له ما يشفى داء العظمة لديه ويشبعها ، لقد أيقظوه في فجر 22 يونيو ليخبروه عن بدأ الغزو الألماني للإتحاد السوفيتي ، فلم يصدق وعاد إلى

نومه وقال لهم : " إنهم يحاولون فقط استفزازنا ، تلك هي لعبة الألمان ، يفعلونها كعادتهم " ..

بعد ساعات من بدأ الهجوم كان عدد الطائرات السوفيتية التي دمرها الألمان قد بلغ 1200 طائرة ، ومع نهاية اليوم الأول كان رقم الطائرات السوفيتية المدمرة قد وصل إلى 1800 طائرة ، ومع بداية الخريف ( أي بعد ثلاثة أشهر من القتال ) كان عدد الأسرى من الجنود السوفييت قد وصل على ثلاثة ملايين سوفيتي من أصل 3.5 مليون مقاتل قبل بدأ الحرب من خيرة القوات ، أي أن أكثر من 90 % من إجمالي القوات كان قد وقع في الأسر ، ومن الطبيعي أن نفس النسبة المذكورة – أو ما يقاربها - في المعدات قد جرى تدميرها مع القوات السوفيتية التي تم أسرها ..

نجت القاذفات السوفيتية من تلك المذبحة لأنها كانت في العمق السوفيتي وبعيدة عن منال المقاتلات الألمانية ، ولو طبق السوفييت تلك النظرية على بقية القوات ، أو نفذوا خططا دفاعية للقوات المكشوفة لما قدموا 28 مليوناً من القتلى في تلك الحرب ..

**بالإضافة إلى ما سبق من أخطاء صنعها ستالين ، كان هناك خطأ آخر من صنعه ، فقد أخبر قادة الأركان أنه في حال قيام الألمان بغزو الإتحاد السوفيتي فإنهم سيدخلون من الجبهة الجنوبية الغربية ، لم يفعل الألمان ذلك ، فقد كانت الجبهة الغربية هي الثغرة التي دخل منها الألمان وليست الجنوبية الغربية ، ومنها فتحوا طريقهم كخط مستقيم إلى موسكو..**

**يتناول الكتاب أيضا قضية الصراع العربي الإسرائيلي ، فيؤكد الفريق فاسيلي ريشيتنيكوف أن الأوامر كانت قد صدرت له من القيادة السوفيتية في أعقاب الضربة الجوية الإسرائيلية في عام 1967 واحتلال أراضي في مصر وسورية والأردن بقصف القوات الإسرائيلية التي دخلت سيناء ..**

**كانت المهمة تتلخص في قيام سرب من القاذفات السوفيتية من طراز Tu-16 يتكون من ثلاثين قاذفة بقصف تجمعات القوات الإسرائيلية في سيناء ، وكانت القاذفات السوفيتية قد استبدلت العلامات المميزة لها بالعلامات التي تدل على أنها قاذفات مصرية ، كما نُزعت جميع الأوراق الثبوتية من الطيارين السوفييت ، وقد كان فاسيلي ريشيتنيكوف واحدا من هؤلاء ..**

لم يكن لدى الطيارين السوفييت المعلومات الكافية عن مناطق التجمعات للقوات الإسرائيلية في سيناء وبخاصة صواريخ الدفاع الجوي وأماكن الطيران الإسرائيلي ، وقبل تنفيذ المهمة السوفيتية بساعات صدرت الأوامر من هيئة الأركان السوفيتية بإلغاء تلك المغامرة ..

**يذكر الفريق فاسيلي ريشيتنيكوف بوضوح في كتابه أن الإتحاد السوفيتي بالتعاون مع مصر كان قد وضع خططا قبل نسخة 1967 تقضى بضرب مفاعل ديمونة في صحراء النقب ، وطارت المقاتلات المصرية من طراز ميج 21 فوق المفاعل قبل النكسة لأكثر من مرة ، يضيف الفريق فاسيلي ريشيتنيكوف أنه تسلم الخطة لكنها ألغيت قبل ساعات من تنفيذها بسبب التدمير الشامل الذي طال الطيران المصري في اليوم الأول من 5 يونيو 1967 ..**

قدم السوفييت حينها خطة بديلة تقضى بقيام المقاتلات السوفيتية من طراز ميج 21 بحماية القاذفات السوفيتية من طراز Tu - 16 أثناء تنفيذ تلك الضربة للمفاعل ..

**يقول العقيد طيار يورى ناستنكا أن طائرات ميج 21 السوفيتية قد أُلغيت إلى المطارات الجنوبية للإتحاد السوفيتي في مساء 5 يونيو وبعد وضوح التدمير الشامل الذي طال الطيران المصري ..**  
تؤكد الوثائق الصادرة من المخابرات الأمريكية عن نفس اليوم المذكور أن تركيا - العضو النشط في الناتو - قد تلقت طلبا في مساء يوم 5 يونيو من العراق بالسماح للمقاتلات السوفيتية بعبور أراضيها لكن الأتراك رفضوا ..

**يؤكد المذيع الإسرائيلي جدعون ريميز وزوجته ايزابيلا جيتور الباحثة بمعهد هاري ترومان التابع للجامعة العبرية في كتابهما " الثعالب الطائرة فوق ديمونة ، المغامرة الروسية أثناء حرب الأيام الستة " الذي صدر في عام 2007 بالتعاون مع جامعة ييل الأمريكية العريقة بمناسبة مرور 40 عاما على حرب 1967 ما يقوله الفريق فاسيلي ريشيتنيكوف في كتابه بخصوص اشتراك القاذفات الجوية السوفيتية مع المقاتلات المصرية التي كانت مخصصة لحمايتها في توجيه ضربة تدميرية شاملة إلى مفاعل ديمونة ، وقد حال تدمير الطيران**

المصري في 5 يونيو دون تنفيذ تلك الخطة ..

تدور فكرة الكتاب الإسرائيلي بصفة عامة حول محاولة إثبات أن الاتحاد السوفيتي كان وراء اندلاع حرب يونيو من عام 1967 بهدف تدمير البرنامج النووي الإسرائيلي قبل أن ينتج أسلحة نووية وذلك بعد أن تأكد السوفييت أن إسرائيل مصممة على اقتناء سلاح نووي ، ويخلص الكاتبان إلى أن الحشود العربية كانت نتيجة تحريض سوفييتي يستهدف استقزاز إسرائيل وبالتالي يمكن لموسكو أن تقضي على مفاعــــل ديمونــــة

وقد أوضح المؤلفان الإسرائيليان أن اندفاعهما نحو هذه الفكرة كان أساسه حديث صحفي لقائد عسكري أوكراني له مصداقيته وكان يعمل في الجيش السوفيتي في ذلك الوقت ، فقد قال ما يلي : أصدرت القيادات العسكرية السوفيتية أوامر بتجميع فرقة عسكرية مدربة علي مستوي عال قد يتم إنزالها علي شواطئ حيفا..

يُعرِّج الفريق فاسيلي ريشيتنيكوف في كتابه على الجبهة السورية ، فيقول أن رئيس الوزراء السوفيتي اليكسي كوسيجن قد أرسل في 10 يونيو 1967 رسالة شديدة اللهجة عبر الخط الساخن إلى البيت الأبيض قال فيها ما يلي : " إسرائيل تخوض العمليات القتالية زاحفة نحو دمشق ، لقد حلت اللحظة الحاسمة التي يتوجب علينا فيها أن نتخذ قرارا مستقلا إذا لم تتوقف تلك العمليات في الساعات القليلة القادمة ، نحن مستعدون لتلك الخطوة رغم أنه يمكن أن تقود إلى صدام ينتهي بكارثة ، نقتراح عليكم أن تطلبوا من إسرائيل وقف العمليات القتالية دون أي شروط مسبقة وإذا لم تفعل بلغوها بأننا سنتخذ الإجراءات اللازمة بما فيها العمليات الحربية " ..

كان التدخل السوفيتي الحربي في النزاع يقضى بإنزال القوات السوفيتية على شواطئ حيفا ثم الانتشار في مناطق الجليل ، ومن الطبيعي أن يتبع ذلك انسحاب القوات الإسرائيلية من مناطق الجولان لمواجهة القوات السوفيتية الغازية ، ولا بد أن يلي ذلك تدخل أمريكي يتناسب مع مثيله السوفيتي ، ولاشك أن مصير العالم سيكون حينها على شفا المجهول ..

لم يكن وزير الخارجية السوفيتية المخضرم أندريه جراميكو متحمسا للتدخل ، بينما كان وزير الدفاع السوفيتي المارشال أندريه جرينتشكا ومدير الـ K.G.B يورى أندروبوف يميلان إلى التدخل في العمليات القتالية بالصورة التي ذكرناها ، قُدم كحل وسط قيام الاتحاد السوفيتي بقطع العلاقات مع إسرائيل ، وزادت أسهم هذا الحل الوسط بعد المكالمة التي جرت بين الزعيم السوفيتي ليونيد بريجنيف والرئيس الأمريكي لندل جونسون لإنقاذ الكرة الأرضية من كارثة كادت أن تقع..

قدمنا في هذا المقال صفحات خرجت إلى الضوء من قادة اشتركوا في صراعات دامية وعميقة في أكثر من مكان على المعمورة ، وقدموا شهاداتهم بكل تجرد وأمانة ..

نحن في انتظار أن يخرج علينا من يشعل الضوء في تاريخنا المظلم والذي يقبع أسيرا تحت إمرة من يحكم ، كي ينبنا بكل تجرد وشجاعة عما حدث في حرب أكتوبر ، تلك الحرب التي وضع أحداثها قبل أن تقع وزير الخارجية الأمريكي هنرى كيسنجر بالتعاون مع الرئيس المصري أنور السادات ودفعت فيها مصر الثمن غاليا من دماء أبنائها ومعدتها الحربية وخرجت من الصراع وأخليت سبيلها من قوات مصر ، وما يُقال عن ظلام المعلومات في تلك الحرب يمكن أن يقال على معظم تاريخنا ، قديمه وحديثه..

( ملاحظة : أشعل رئيس الأركان المصرية في حرب أكتوبر الفريق البطل سعد الشاذلي الضوء فيما جرى ودفع الثمن راضيا ، لكن صمنا أصاب القادة الآخرين ، وشعب مصر في حاجة لمعرفة تفاصيل ما جرى ) ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس – ميزوري - أمريكا

[elwisheer@yahoo.com](mailto:elwisheer@yahoo.com)

: تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي

[www.thowarmisr.com](http://www.thowarmisr.com)